النتاج الجديد

« زائر الصباح » و « أحزان الربيع »

مجموعتا قصص بقلم : فاروق منيب

* * *

يبدو ان الهزات العنيفة التي تمر بها الشعوب كثيرا ما تعجل بابراز ما يكمن فيها من كنوز . فخلال المعارك العديدة التي خاضتها بلادنا ، ولا تزال ، منذ قيام الثورة عام ١٩٥٢ . الى اليوم . ظهر عدد كبير من كتاب القصة القصيرة من الشبان ذوي الوجدانات المتفتحة ، والنفوس الطامحة الذين وجدوا متنفسا في التعبير بالقصة ـ ومن حسن الحظ ان هؤلاء الشبان الذين نبتوا في الريف وانتموا الى الطبقات الكادحة ـ قد ارتكزوا بجانب مواهبهم الخاصة على تلك الدعائم التي اقامها جيل سابق من كتاب القصة ، قد نعجز عن تصور ما لاقاه من عنت ومقاساة . نذكر منهم محمود طاهر لاشين ، وصلاح ذهني ، والمازني ، ويحيى حقي ، وعبد المعطي المسيري « واحمد خيري سعيد والدكتور حسين فوزي وغيرهم» ثم من جاء بعدهم من امثال (١): ـ عبد الرحمن الشرقاوي ، ويوسف أدريس ، ونجيب محفوظ ، ومحمد عبد الحليم عبد الله ، وآخرين . فبفضل أعمال هؤلاء الرواد ، وبفضل النوافذ التي تفتحت على عالم الفن الواسع فعبوا بملء رئاتهم من هوائه النقي ، واستظلوا بفروع دوحته الوارفة ، وبفضل بعض الايدي الحانية التي أضاءت لهم الدروب الملتوية وجنبتهم الكثير من مزالق الطريق من امثال الاستاذ محمود أمين العالم ، والاستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتي ، والدكتور محمد مندور وغيرهم خرجوا من شرانقهم وواجهوا الحياة ببعض الاعمال التي كانت تقرأ في الغرف نصف المضيئة ، او في بعض الندوات كرابطة الادب الحديث ، وقد كان من هؤلاء النفر فاروق منيب الذي نتحدث في هذه العجالة عن عمليه الاخيرين (زائر الصباح، واحزان الربيع) ...

واذا كان للقصة القصيرة قواعدها المتوارثة من « بداية مشوقة ، وحركة نشطة ، ونهاية موحية ومقنعة ، ومفهوم مهم يمدنا بمتعة غير عادية » (١) « لان القصة القصيرة حدث ينشأ من موقف معين وينطور بالضرورة الى نقطة معينة يكتمل بها معنى الحدث » (٢) ، فان المدارس الحديثة التي يزخر بها العالم ، وتهب رياحها العاتية علينا ـ ترفض الكثير من القواعد التي ألفها الناس كأثر للتغيرات الحضارية العميقة التي طرأت على العالم والتي مهد لها فرويد بنظريته عن اللبيدو ، وما يخبئه اللاوعي في كهوفه الرهيبة من رغبات مكبوتة لا يبوح بها الا في الحلم ، أو الجنون ، او الفن ، الذي هو لحظة من الجنون ، او لون عاقل منه . كما مهدت لها الاكتشافات الجديدة في عالم الاقتصاد ، والتطور ونظرية النسبية التي غيرت الكثير من المعتقدات العلمية الثابتة . لذلك لم تعد القصة تخضع (لقواعد العقل والمنطق ، بل أصبحت صورة للحياة المفككة المتفتتة ، وخرجت في شكل وعاء يضم كل المتناقضات التي تجعل من الحياة كومة من الاخلاط العجيبة ، وكأن الانسان ينظر الى الحياة لاول مرة ، وكأنها لغز ... (٣) كما أخذت عن الموسيقى انتقاء الكلمات والعبارات وسرعة التأثير بالتقابل والمفارقة ، والانتقال الفجائي ، وعن الرسم .. توزيع الاضواء والظلال ، والاهتمام برسم الصور المكثفة ، واخذت عن السينما ما يعرف بالمونتاج ، عن طريق المونولوج الداخلي ، وتكنيك تداعي المعاني . ولسوف نجد ظلالا لكل هذا في قصص فاروق منيب مع الاحتفاظ بشخصيته واعني بها ـ على وجه التحديد رؤيته الخاصة لما في الحياة ، فهو صاحب منهج جدلي يستقطر الحياة من خلاله ، ويفسرها في ضوء نظرته الكلية للوجود . نعم هو كثيرا ما يختبىء في قوقعته من قسوة الحياة « في النهاية لم أجد الا قوقعتي استعطفها » ، لان من الخارج يتنافسون على كل شيء « طحنتني أقدامهم الغليظة ، ينظرون خروجي ليجعلوا مني مشكلة ، كل عملهم أن يحلوها ويفكوا رموزها » كما لا يحب أن يواجه الذين يلتفون في قشورهم الزائفة ، اولئك الذين يكتبون عن مشكلات الريف وهم غارقون في الترف ، والذين يكتبون عن كل مناسبة دون ان تكون لها جذور في أعماقهم ، وهو شأن كل فنان صادق يحتاج لقدر من العزلة ليتأمل ما حوله « فضلت ان اتفرج على الطبيعة وأنا في قوقعتي ... » ومع ذلك فهو ليس معزولا عن الحياة او غير متعاطف مع الناس بل هو ينوء بأعبائهم . وحين تثقله الهموم يلجأ الى القوقعة ليستقطر عذابه في عمل فني جديد ، لذلك نجد ان موضوعات قصصه ـ في الغالب ـ مستمد من الريف الذي نشأ فيه ، كما يستمد البعض كقصة « عنبر » من مدينة حلوان التي كانت مقر السادة والاعيان والبعض الآخر من علاقاته في العمل . وبعض قصصه يصور مواقف وطنية من خلال مشكلات فردية كقصة « خيال » التي يعالج فيها مشكلة مدرس يحاول ان يقول « لا » مرة في حياته في وجه الناظر وفي وجه المنهج التقليدي الذي يلزمه بتدريس عصر أسماعيل ، ويعاقبه ان تكلم عن عرابي ورفاقه في النضال ، وفي لحظة شجاعة يتقمص شخصية عرابي ، ويتمثل الناظر في صورة الخديوي ، والتلاميذ الكتيبة التي تلتف حوله وكما تخلى عن عرابي بعض أنصاره تخلى التلاميذ جميعا عن الاستاذ في ساعة الحرج . وكقصة « زائر الصباح » التي يلتقي فيها بطيف الشاعر المعروف ناظم حكمت الذي يقص عليه قصة عاشق حاول ان يشق بمفرده طريقا في الجبل ليحقق رغبة حبيبته في ذلك ، فيعجز واخيرا يهتدي الى القوة التي كان غافلا عنها . قوة الجماهير حين تتحد ، وتتحرك ، وبذلك يحقق امله .

وسواء كانت الشخصيات من القرية او المدينة فهي شخصيات مسحوقة ترزح تحت جبال من الهموم والذكريات ، وتحاول ان تفك من حولها حصار الزيف فتفشل ، ويلحقها الاحباط في الغالب . وهي شخصيات قلقة ، ربما لانها تعكس فترة القلق الاجتماعي التي تعيشها. فالمجتمعات ـ تكون نهب القلق في فترات مخاضها . فعطية صبي المطبعجي يهرب من قسوة العمل ورتابته ليعيش لحظات مع قصة الصياد العجوز والبحر ورغم اصراره على مواصلة القراءة والاستمتاع بالحياة الغريبة ، حياة البحر الاسطورية التي تستهوي من في مثل سنه غالبا.. فان المعلم في النهاية ينتصر على عطية وينتزع منه القصة قائلا « دع القصة ، واذهب الى المسبك لتحضر التاء المربوطة ، كذلك يفشل عبد المقصود افندي في ان يجعل زوجته ذات الوجه العابث المتجهم ، تبتسم امام المصوراتي حتى لا تخرج تقطيبة وجهها الدائمة في الصورة ، اما شحاتة في قصة « قمح » فانه ينجح في تسلق الجدار ، والهبوط في الذريبة ليسرق ربع جوال من قمح الحاج الفولي ، ولسوء حظه يدوس على ذيل الكلب المستغرق في نومه اللذيذ فيرسل نباحا عاليا تتجاوب له كلاب القرية ، ويستيقظ النائمون ليقبضوا على شحاتة المسكين ، ولقد حاول عبد النبي الغفير الذي كان يقتفي اثر شحاتة منذ خرج من المنزل معتزما السرقة . ان ينسب لنفسه الفضل في القبض على شحاتة ولكنه عجز أيضا ، وجنى العمدة ـ وحده ـ ثمرة ذلك اذ فرض على شحاتة ان يدفع له أي للعمدة خمسة جنيهات كاملة ليفرج عنه .

واذا كان اغلب الشخصيات مسحوقا ، ومنهزما رغم الكفاح المرير اليائس ، فيهرب بعض الناس من الضيق الى الاكل او الشرب « فكلما جاعوا أكلوا ، وكلما أكلوا جاعوا » فان عددا منها يتحقق له بعض الانتصار . من ذلك الطفل محمود ماسح الاحذية الذي ينتصر على فشله في الحصول ولو على زبون واحد طيلة اليوم بالتعلق بعربات الترام ، والافلات من أيدي الكمسارية كلما حاولت الامساك به ، وكذلك عوض بك الذي يعاني من الوحدة ، والهرم ، تعود له ثقته بنفسه حين يقتل بعصاه ـ بعد جهد ـ الفأر الكبير الذي ظل يقلقه لفترة طويلة ، ولعل

---

١ ـ انظر : « فجر القصة » للاستاذ يحيى حقي

٢ ـ مقدمة « الشياطين الخرس » للاستاذ السحرتي

٣ ـ فن « القصة القصيرة » للدكتور رشاد رشدي

هذه القصة تشير ولو من بعيد الى قصة « العجوز والبحر » « لهمنجواي » فكلاهما يسترد ثقته بنفسه بعد ان ينتصر على شيء . العجوز على السمكة الكبيرة وعوض بك على الفار ، وان كان اختيار الفار غير موفق اذ يخلو من الشفقة على انسان حطمته الشيخوخة . وفي « نسمة هواء » تنتصر الطفلة الرقيقة « زينب » على والديها ، وتترك الحجرة الصامتة رغم ما لديها من أسباب التسلية لتهبط السلم لتلعب مع الطفل الزلطة زكريا الذي يحرس طول اليوم كتاكيت أمه .

ولعل الاحباط السابق هو الذي وشح المجموعة الاولى « زائر الصباح » بغلالة من الحزن ، قد ازدادت كثافة في المجموعة الثانية « احزان الربيع » بسبب الشعور بالموت الذي يلقي ظله الكئيب على قصص هذه المجموعة ، بل ـ بسبب لا نعرفه ـ قد أصبح المؤلف لا يرى حتى في استشهاد المكافحين غير مأساة الموت التي تدمر كل شيء ، فحين يطلب منه ان يكتب عن شهداء البوليس في الاسماعيلية لا يخف كزملائه الصحفيين محترفي الكتابة عن المناسبات الى الارشيف لينهل منه قصص البطولة والفداء ، وانما بمجرد ان يلمح صورهم يمثل امامه شبح الموت الرهيب الذي يشوه جمال الحياة « فالصبار نبت ، وترعرع فوق قبور الشهداء ، زوجاتهم كبرن ، واقتربت الشيخوخة من وجوههم .. لم يخلعن أثواب الحداد بعد .. » وفي قصة انتظار تطارده صور الاطفال الاربعة الذين غرقوا في النهر ، ويحاول ان ينسى ذلك بالالتقاء بالاصدقاء والانغماس معهم في الشراب ، والضحك ، ولكنه حين ينفرد بنفسه ينفرد به شبح تلك المأساة « اطفال يموتون قبل الاوان ، بدون سبب معقول .. » فالحزن الزائر الكئيب كثيرا ما يطرق عليه باب قوقعته ، وربما صور له الوهم فقدانه لانسان عزيز عليه .. حتى اذا استيقظ غمره الفرح فكل ما رآه لم يكن سوى كابوس ثقيل .. بل ان فصل الربيع الذي اعتاد الناس ان يتصوروه فصل الحب والبهجة والشباب ، قد جاء لعبده الشاب الباسم .. بهدية لم يألفها الناس من قبل ، فلقد جاءه بباقة من الضيق جعلته يأوى الى كهفه النفسي ملفعا بعباءة الاحزان .

وفي المجموعة الثانية (احزان الربيع) يثير اهتمامه عالم الطفولة النقي ، فيكشف عن اعماق زاخرة بالحب لهذه البراعم الصغيرة ، من ذلك قصة « العازفة الصغيرة » التي تنقل على مفاتيح البيانو أصابع رقيقة كطيور بيضاء ، وقصة « جرعة ماء » التي لا يغفر فيها الابن تنكر والده له حين ترك أمه . كما لم ينس الايدي التي حملته ، وطافت به القرية مهللة فرحة ، وحين طلب جرعة ماء امتدت اليه تلك الايدي بالماء والحب ، وذلك حين قرر الطب والقضاء الحاقه بوالده .. وقصة « الصبي والصياد » التي أشرنا اليها من قبل و « رزبلبن » تلك القصة الرائعة ، فالشيخ عبد الستار صاحب دكانة ترزي العائلات يترك الدكانة لصبيه عبده الطفل الصغير ، ويذهب ليؤدي صلاة الجمعة ولكنه يخشى ان يلتهم عبده سلطانية الرز بلبن » التي احضرتها له زوجته » بسمل قبل ان يترك الدكان ، والقى نظرة على صبيه ، واعتراه شيء من عدم الاطمئنان ، فهو يعرفه جيدا ، ريقه يتحلب لرائحة الطعام ابدا .. وفي تودد مصطنع اعطاه نكلة بعد ان فرز قروشا عديدة في كيسه ، وليأمن شره اكثر .. قال له : خلي بالك من السلطانية يا عبده، اوعى تقرب لها احسن فيها سم .. سم قاتل بيموت .. وضحك عبده في سره ، وقال : حاضر يا معلمي . اتجه المعلم الى المسجد للصلاة ، تملكت عبده حمى الطفولة فحاول في البدء ان يفرد امامه ثوب احد الزبائن مقلدا المعلم في قص الثوب ، ثم لم يلبث ان جمع الثوب ، ووضعه في مكانه بالرف ، وجلس على ماكينة الخياطة .. ذلك السر الغامض بالنسبة له . وفجأة اعترته الدهشة فقد شاهد الابرة تعلو وتهبط ، فامسك قدمه ، وصمت ، لقد ارتكب حادثا خطيرا هز أعماقه المنهارة ثم جرى تحت شماعة الملابس ، ولبس جلبابا جديدا لاحد الزبائن بعد ان راقه لونه الابيض الزاهي تحسس قماشه ، ووضع يده في جيبه ، مشى به مختالا داخل الدكان ، وبقي دقائق وقلبه يفيض بالفرح ، ما عاد اصبع قدمه يؤلمه ، ولا يفكر في ابيه أو أمه . كان يعيش في عالمه الخاص الجميل وفي سرعة قفز الى الخارج ، ودار به حول الدكان ثم عاد سريعا فلقد لمح شخصا يشبه معلمه وبعد أن اطمأن الى انه ليس هو .. شعر بالجوع فاقترب من « سلطانية الرز بلبن » سوى سطحها باصبعه لحس ما علق به من لبن وأرز ، ثم أخذ يفكر في حيلة يلجأ اليها بعد ان يلتهم السلطانية التي لم يستطع مقاومة اغرائها ، فكر ان يخفي المقص ويقول للمعلم انه ضاع ، فأردت الانتحار بأكل « الرز بلبن » المسموم، وقبل ان يشرع في تنفيذ فكرته ، سمع نحنحة تعود عليها فقطى السلطانية باحكام ثم جرى الى واجهة الدكان ينتظر معلمه ... وفي قصة « الفخ » يصور عمق غريزة الامومة حتى عند الحيوانات ، فالكلبة المدربة عزيزة تهرب ويحاصرها صف طويل من العساكر شاهري السلاح ، ولكنها تابى ان تخرج من السرداب الذي اختفت فيه رغم كل ما يقدم لها من وسائل الاغراء . فقد وضع لها العساكر في الفخ دجاجتين مشويتين « والجوع يقرص امعاءها المرهقة . وكاد الجوع ورائحة الشواء أن يغرياها بالخروج والوقوع في الفخ ولكنها قاومت ولم تستسلم . واخيرا ، وبعد مضي زهاء ثلاثة ايام على اختفائها عاد العسكري المراسلة يحمل لفة مغطاة بين يديه وصاح .

ـ اهوه يا بيه .

ـ قال الضابط : هاته

وبلهفة جرى الى الفخ واطلقه : كان جروا لطيفا اغبش البشرة ، يحاول العواء كالكلاب الكبار فيبدو صوته متقطعا كالثمرة المقطوفة قبل الاوان . وفي لمح البصر كانت الكلبة داخل الفخ تتشمم الجرو وتلحسه .. لقد ظهرت بوادر هذا الاحساس بعالم الاطفال البريء في قصة « صندل » في المجموعة الاولى ، فحين اختلس الجنيدي الوزة التي تزغطها أمراته لعاشوراء وعزم ان يذهب بها الى السوق ليشتري بثمنها بعض الكيماوي ليرشها في حقل الذرة الذي يملكه ـ تعلق به ابنه درويش قائلا : انا عايز اروح معك السوق يا بابا .

وعلى طول الطريق كان يسحبه في يده اليمنى ، محتضنا الاوزة على نصف صدره الايسر لافا عليها يده كالكماشة وفرفر درويش فاقدا وعيه من الحر : رجلي بتلسعني يا به .. ومر صديق فحمل درويش على الحمار . ومن على ظهر الحمار كان درويش يجدف في عالمه الخاص، فحين رأى أفنديا يمتص حبة من المانجو كان يغالب نفسه كي لا يجابه أباه : انا عايز مانجة يا به ... واخيرا وصلا الى السوق وباع الجنيدي وزته باربعين قرشا ، وقبل ان ينحرف ليشتري الكيماوي تصلب درويش يريد ان يرى الحاوي ، ثم عاد يطلب المانجو ولكن الجنيدي كان مشغولا بنفسه تمنى طاقية من الوبر تعيد اليه شبابه الفاني أو رطلا من البن اليمني او زجاجة من الغازوزة ليطفيء بها جوفه الملتهب ، ولكن كل هذه الامنيات كانت تندحر حين يذكر الحقل والمحصول والري والربع فدان الذي يحتاج للكيماوي ، خاطر واحد ارتفع كالعملاق ، فبجوار محل الكيماوي التمعت امامه صنادل العيال براقة ، خلابة ، وعلى مهل كان درويش ينكس رأسه ، ويعبث بأصابعه في الاحذية ، وبربع نظرة ملتوية الى الصنادل اللميعة قال في خبث : الارض بتلسعني يابه ... اشيلك .. لا .. عايز صندل ، وفي عزم انعطف الجنيدي نحو الصف الطويل من الصنادل المعلقة ليدس في قدم درويش واحدا منها .. يتبختر به في القرية امام الاطفال .

هذه هي الجداول التي يستمد منها الكاتب موضوعات قصصه ، وقد آن لنا أن نقف وقفة متانية قليلا لنستكشف اسلوبه في التناول ، او لنتعرف على سر صنعته . لقد اعطانا مفتاح عالمه الخاص حين قال في قصته « عبر النار » التي كان البطل فيها يبحث عن موضوع لقصته « لا بد من خلط الواقع بالخيال » اللحظة الحاضرة بلحظة الحلم ، التفاصيل بالفكرة العامة التي تصب في مجرى النهر الواهم نهر الانسان المغلوب على امره .. وليس ما يقوله الكاتب بالشيء الغريب على كتاب القصة بل هو استفادة من أحدث ما وصل اليه التكنيك الحديث في كتابتها .

يقول الدكتور طه محمود طه في كتابه القصة في الادب الانجليزي

« واصبح جريان الفكر وسيولته او ما يعرف بتيار الوعي يكونان العمود الفقري في أية قصة حديثة . واستعمل القصاصون في ابراز هـذه النزعة التجديدية طرقا سيكلوجية عديدة منهـا المونولوج الداخلي ، والمونولوج الصامت ، ورموز العقل الباطن ، ودلالات رمـوز الاحلام ، واحلام اليقظة والتي يجلبها الاجهاد والنعاس أو الخمـر والمخدرات ، ونفذ الاديب من ابواب الحس الادراكي الـى متاهات العقل الباطـن واللاشعور » ص ١٤٩ . وتقول « فرجينيا وولف » لا بد للقصة من ان تسجل الافكار التي تشبه الذرات وهي تتساقط الواحدة تلـو الاخرى على العقل » ص ١٥٣ ، ولقد استغل الكاتب المونولوج الداخلي في اكثر ما كتب ، لان أبطال قصصه مطحونون ، ويعانون ظروفا قاسية في الحياة، كما يخنقهم الزيف والنفاق الذي يعيشون فيه ، لذلك كثيرا ما يلجأون الى القوقعة ، قوقعة الذات ، ليختبئوا فيها بعيدا عـن هـذا العالم المتصارع يرقبونه في توجس ، كما قد يهربون الـى بستان الاحـلام ليستعيضوا به عما فقدوه في عالم الواقع ، كما في قصة « هروب » : « واغفى قليلا على قائمة كرسي امامه .. عاد الـى البيت . استقبله اولاده فرحين على وجوههم بشر جديد لم يألفه من قبل ، يلبسون اثوابا بهيجة مفرحة ، في اقدامهم احذية موشاة بالخضرة والذهـب ، رأى زوجته كأنها عروس في سن العشرين ... واستيقظ على يد الجرسون توقظه من غفوته » ص ١٠٤ وهو في ذلك ينتقل دائما من شيء محسوس خارجي الى شيء مشابه له في عالمه النفسي وهو ما تعارف عليه علماء النفس بتداعي المعاني « وهز الكلب ذيله فهزت الاشواق « عنبـر » لذكرى ابيه . انكشفت له احزانه التي كان يخفيها عنه ، كره صوت أمه الذي عجل بموته ، وشعر بحنان على كلبه زين . كان أبوه يثق بـه ، يشكو له آلامه ... قال للكلب الخ ... وهبت بعض النسمات اللطيفة من شاطيء البحر فملأته بحلاوة الاقدام على المغامرة .. كـل الذيـن يقولون « لا » يتعبون » . وكما ينتقل من الخارج الى الداخل النفسي، قد يحدث العكس ، فالشعور النفسي يفيض على مـا حوله ، ويلونه بلونه ، وهذا شيء مألوف في الشعر ، والقصة القصيرة تلتقي بالقصيدة في هذا اللون ، كما تلتقي معها في العبارات المكثفة والصور السريعة. يقول بطل زائر الصباح : وماذا تترك لاولادنا ؟ فيجيبه الآخر : لا شيء سوى الحب في تلك الحياة ، لا ينتظر منا اولادنا .. ولا مجـدا ولا مالا « وهبت نسمات لطيفة من البحر ، وصفق طائر بجناحيه فوقنا ..»

لقد اضفى هذا الاسلوب الحالم على قصص المجموعتين ، وبخاصة المجموعة الاولى ، نوعا من التشويق والجاذبية اذ أتـاح للكاتب فرصة التنقل والسرعة في تسجيل اللقطات من اغوار النفس آنا ، ومن الطبيعة آنا آخر ، كما مكنه من تتبع الحيـاة النفسية للشخصية وتسجيـل ملامحها تسجيلا ليس فوتوغرافيا ، وانما تسجيلا نابضا بالحياة والمعاناة. والكاتب بطبيعته يميل الى التعبير حتى في الحوار غالبا باللغة العربية الفصحى ، وقد أعانه الحديث مع النفس على ذلك . لهذا ترى عددا من شخصيات قصصه رغم انهم ناس لا يتعاملون في حياتهم بعملة اللغـة الفصيحة يديرون حديثهم اوهاجسهم النفسي بها ، كما مكنه ذلك مـن الغاء الزمن الميكانيكي والاعتماد على الزمـن النفسي المتداخل ... أي الزمن الذي لا توجد فيه أية فواصل بين ماضيه ، وحاضره ، ومستقبله، كما يحدث في الحلم والكابوس ، كما يعمل على تحطيم التناسق الجامد في بناء العمل الفني « يقول هكسلي » « ان الموتى وحدهم يتصرفون على نسق واحد ثابت ص ١٦٣ » لان كل احساس او شعور أو لحظة مـن لحظات الوعي تختلف عن الاخرى .. وفـي عالم الهواجس النفسية الحالمة يستطيع الكاتب ان يبث الحياة في الجماد ، ويمنـح الحيوان موهبة الكلام .. واذا كان تشيكوف في قصته شقاء « يقول للفرس » كان ينبغي ان يكون ابني هو الذي يقود ، لا أنا ، كان ينبغي ان يعيش ، لقد ذهب ، قال : وداعا .. ذهب ومات دون ما سبب ، تصوري ان لك مهرة صغيرة وكنت أنت أمها ، وفجأة ذهبت وماتت ستأسفين عليهـا ، أليس كذلك ؟ لقد خاطب الفرس حين عجز عن ان يجد من يصغي له من الناس نعم أن تشيكوف لم ينطق الفرس . كما فعل ارثر ميللر .. فـي قصة « موت بائع جوال » .

يقول الشاعر الروسي « افتوشنكـو » : « واصبحت مولعـا بالتصوير ، وقد حولت كل دخلي الـى لوحات فاصبحت الآن حوائط شقتي مغطاة بأعمال مـن كـل المدارس ، الواقعيـة ، والتعبيرية ، والسريالية ، والتجريدية وهي تعيش في جوار حسن ، وهذه اللوحات تلازمني كالاصدقاء ، وكثيرا ما يدور بينـي وبينها حديث صامت » ، وكذلك يفعل الاستاذ فاروق ، فشخصية القصة قد تتحادث مع النخلة كما في قصة « جبال بلا ذكريات » كما يكلم عنبر أباه الميت في هـذه القصة ، ويتحاور مع الشاعر ناظم حكمت في زائر الصباح ، ومـع مريض المستشفى العقلية في « زيارة » .

واذا كانت عملية خلع الحياة علـى الجمادات ، واللغة علـى الحيوانات ، والغاء المسافات المكانية والزمانية بين الموجودات انما تتم في لحظة التوتر الشديد او في قمة هذا التوتر التي يختلط فيها الواقع بالخيال والوهم بالحقيقة كما في قصة « زائر الصباح » فانالكاتب قد استهواه هذا الاسلوب الجديد .. فزج به في قصص لا يتوفر لها هـذا التوتر والانفعال مما يجعل القارىء يحس بأنه نشاز يمكن بتره والاستغناء عنه ليستقيم بناء القصة ، من ذلك الحوار الطويل الهش الذي اجراه مع الكلبة في قصة « الفخ » ومن الملاحظ أن الحوار ـ عامة لـدى الكاتب ـ كثيرا ما يجانبه التوفيق ، اذ يقع فـي النمطية والتعبيرات المألوفة ، ولا يتوفر فيه شرط التركيز أو التكثيف ، فالقصة الحديثة تميل الى الاهتمام بالكلمة والعبارة وكأنها عالم صغير . وكمـا يقول « ازرا باوند » «ما الادب العظيم الا لغة مشحونة بالمعاني الـى اقصى درجة » وعلى كل فالكاتب ككل كاتب طموح يجرب ، ويجرب الـى أن يستقر على اسلوب بذاته . لذلك نجده كثيرا مـا يحاول كتابة الحوار باللغة العربية حينا ، وباللغة الثالثة ـ العام عربية » حينا آخـر ، واللغة العامية في بعض الاحيان .

واذا كانت القصة القصيرة اقرب الفنون الادبية الى الشعر ، فان

الى السادة الادباء

لا يزال بعض الادباء الكرام الذين يتعاونون مـع « الآداب » يرسلون المادة النشرية نفسها التـي يوافون بها المجلة الى مجلات اخرى في وقت واحد ، او بعـد مضي زمن قليل ، فيحدث ان تنشر هـذه المادة فـي « الآداب » وفي مجلة اخرى في الشهر نفسه او فـي شهرين متتابعين .

وتجد رئاسة تحرير المجلة نفسها مضطرة الـى تجديد التنبيه الى ان المجلة ستمتنع بعد الآن عـن نشر اي مقال او قصة او قصيدة يتبين ان صاحبها يلجأ الى هذا الاسلوب .

فاروق منيب كان شاعرا في الكثير من قصصه ، فلقد اعتمد على الايحاء ـ والاشارة ـ باللمحة الخاطفة ، والايماءة الذكية مما جعل بعض قصصه تحتاج لاكثر من قراءة حتى تكشف للقارىء عن عطائها كما في قصة « العازفة الصغيرة » التي لا ندرك الا بعد جهد ان هذه الزهرة التي يحدث عنها ابنته هي زهرة الحرية او الاشتراكية او غيرها من معاني الخير للانسان ، وكما في قصته « زيارة » التي تتعاطف معها تعاطفا وجدانيا دون ان تكتمل لنا صورة الحدث او ترتسم واضحة في اذهاننا ، وفي سبيل التعبير باللغة الشاعرة سلك طريق الرمز ، بل قد ضمن القصة قصة رمزية بداخلها كقصة العاشق الولهان التي تخللت قصته الرائعة « زائر الصباح » من ذلك استغلال التوتة رمزا للعودة الى الوفاق والالتقاء اذ ان الزوجين التقيا عندها مرة ، وخيال الاب يرمز عنده الى الشيء القديم المألوف الذي لا يرغب في الجديد كما في قصة « عنبر » . ولقد قال علماء نفسه من قبل ان « الاب » قد يرمز الى السلطة وكل ما هو رادع ، بل لديه قصص كقصة « التفاحة » من قبيل القصص الرمزية ان صح هذا . فهو يهرب من ملالة الحياة ، وزيفها الى بستان وهمي يلقي فيه بمتاعبه وهمومه حيث تتساقط الثمار من حوله ، « وقت الغروب يطبع البستان بهدوء حالم ، العصافير تسكن في اعشاشها ، مياه النهر الصغير غامت تحت ظلال الاشجار الدكناء ، ثم شبح الحارس يلقي علي ثقله ، الحان القنوط تدب في وجداني ، الفرحة تضمر في صدري ، الوحشة تملأ نفسي ، العودة للخارج تحزنني » لقد أمده الريف الذي حنى علىطفولته بالكثير من الصور الغنية بالدلالة والايحاء . وفي قصة « زائر الصباح » التي عايش فيها خيال الشاعر المعروف ناظم حكمت نلمس تلك الروح الشاعرة واضحة في اسلوبه ولعل هذا يعلل لنا السر في اهتمام الكاتب بقراءة الشعر ، ونقده ، وفي هذه القصة يفاجئنا لاول مرة بحوار شعري موزون كتبه باللغة العامية . كما يضمن احدى قصصه جزءا من موال شعبي يزيد الحدث عمقا واتساعا كما في قصة « جرعة ماء » .

ولعل ذلك ينقلنا ـ بالضرورة الى مفردات اللغة التي يكتب بها فنجده قد اعطى نفسه حرية التصرف فيها فهو يصوغ قصصه بعبارات مشرقة أخاذة ، تمتاز بالانسانية ، وتكثر فيها الجمل المتقطعة التي لا تترابط فيما بينها بحروف العطف مما يتلاءم مع النقلات والانعطافات النفسية في داخل مسارب الذات .

ولقد استعمل كثيرا من الكلمات العامية في الحوار والسرد ، ووفق في مزجها باللغة الفصحية حين لا تكون له مندوحة عن ذلك بسبب ما يتوفر للكلمة العامية من خصوبة في الدلالة وغنى في الايحاء لا يتوفر لمرادفها الفصيح ، من ذلك : فحين رأى الاوزة الثمينة التي تزغطها امرأته لعاشوراء .. وعكمها في هذه المرة « وفرفر درويش فاقدا وعيه » اعترته الشفقة فناداه وطبطب عليه ، وهو يكتب الحوار باللغة الوسط او اللغة التي دعا اليها توفيق الحكيم ، وكتب بها بعض اعماله ، والتي يمكن أن تقرأ فصيحة وعامية .

ولقد استطاع ان يكسب قصصه بعض الابعاد الواسعة بتوفيقه في الاستفادة من عنصر التقابل والمفارقة وما تثيره من كشف لما في الحياة من تناقض ، وهي أثر من آثار العرض السينمائي في القصة كما في فيلم زوربا اليوناني ، اذ بينما يرى المشاهد الفلاحات وهن يختلسن او ينهبن الاشياء التي تركتها العجوز التي توفيت اذ بالكاميرا تنتقل لتسقط .. فجأة على حقل أخضر يموج في خيلاء تحت هبات الريح الوانية .. وفي قصة « بلا ذكريات » ـ وهي من اروع قصصه ـ نجد البطل بينما يتجه بنظره الى المكان الذي مات فيه والده (انهم نادوه في الصباح فلم يرد ، وجدوا بجواره كوبا مملوءا بالماء ، وبقايا سيجارة لم يتمها بعد) اذ به ينقل البصر الى المكان المقابل الذي ولدت فيه ابنته .. والذي يفرح به كلما رآه .. كما يستغل المفارقات الموجودة كثيرا في الحياة كما في قصة الزائر الكئيب « فالموت يزحم على الناس حياتهم . وفي الشارع نجدهم يتصارعون ويتقاتلون على فتات الحياة ، ونرى ذلك أيضا في قصة الانسان والتمثال وقصة « ابو دراع » التي تسجل تعليقات راكبي الترام على الخبر المنشور في الصحيفة عن انتحار درويش ، كاشفا كل منهم عن عمله وثقافته من خلال التعليق على هذا الخبر دون ان يكون لاحدهم سابق معرفة بهذا الدرويش ، واحد فقط هو بطل القصة او الراوي الذي يعرف الكثير عنه . مما لو عرفه الناس لقدروه وعطفوا عليه فأصحاب الوجوه الزيتية ـ على حد تعبير الكاتب ـ يدينونه فمن قائل : انه مجرم محترف ـ وقائل : ان هؤلاء الدراويش يسيئون الى المجتمع . وهو بخلاف كل ذلك ، فلقد كان طالبا خجولا تشع حلاوة الطفولة من عينيه وتبزغ ابتسامة مشرقة من وجهه الصغير الرقيق . ثم اضطرته الظروف فترك الدراسة وتعلم قيادة السيارات ليشق طريقه في الحياة . وحين رأى بلاده تقاتل الانجليز في القتال تطوع مع الفدائيين ثم عاد بلا ذراع . وبذراع واحدة خرج حسنين وهذا هو اسمه ـ يبحث عن عمل لكنه لم يوفق فالوطنية لا ثمن لها ولا جزاء في بلد محتل . وضاقت عليه القاهرة فلم يجد مكانا أمينا يستريح فيه سوى الحسين . استند على جدار المسجد ومد ذراعه المقطوع ، واخفى وجهه حتى لا يراه أحد ... جاءه انسان يطلب منه حجابا كتبه له ، فجاء ثان وثالث ... لكنه قد ضاق بالحياة التي اضطرته الى ذلك . لم يكن في قلبه الا هتاف واحد : لم تعد الارض تتسع للشجعان .

ورغم اكتشاف الكاتب لهذا الاسلوب الرائع الذي يمنح القصة رحابة وتنوعا ، الا أنه كثيرا ما يهمل الاستفادة منه : ففي قصة «خيال» نجد التلاميذ جميعا يقفون مع ناظر المدرسة ضد المدرس ، ولم يرتفع ولو صوت واحد ليعارض مما يجعل القارىء يشعر بالسخط على هؤلاء الاطفال الصغار ، وكذلك في قصة « ذكريات قديمة » فالغرباوي يتهم من الطلبة جميعا بالخيانة لانه كما تصوره الشائعات ـ قد اتصل بالبوليس ، واطلعهم على ما عزم عليه الطلبة من اضراب احتجاجا على ما صرح به وزير خارجية بريطانيا من انه لا يمكن التخلي عن قناة السويس ، ورغم أن هذه مجرد شائعات وظنون فقط فاننا لا نجد طالبا واحدا يدافع عن هذا الطالب المحاصر .

قد يشفع للكاتب ما يقال من ان الجماهير حين تحتشد تتصرف وفق ما تمليه عليها وجداناتها فقط او كما يقولون : الجمهور لا عقل له.

واخيرا فمن حسنات الكاتب التزود لكل قصة بالمعارف الضرورية لها ، فحين يتعرض لرسم شخصية الخفير عبد النبي في قصة القمح يروعنا الكاتب بمعلوماته عن الاوامر التي يتلقنها الخفراء اثناء فترة التعليم ، كما نجد ذلك في قصة أول طلقة اذ نجد لديه الالمام الكافي بأجزاء البندقية وطريقة التنشين .

والحق ان الاستاذ فاروق منيب قد زاد من شعورنا بثقل التبعة التي نحملها تجاه ادواتنا التعبيرية اذ ادركنا من خلال عمليه هذين مدى اخلاصه لفنه ومدى الجهد الذي يبذله في سبيل اكتشاف ذاته ، والتعرف على ما حوله ، وفي سبيل ما يصبو اليه من الانفراد بأسلوب جديد ينقل به الى القراء ما تموج به نفسه من أفكار ومشاعر .

كيلاني حسن سند

منشورات دار الاداب

تطلب في دمشق من وكيل الدار

مكتبة النوري

شارع سنجقدار